خطبة صلاة الجمعة 14/ 9/ 2018 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(الهجرة حدث تاريخي مضى، ومبدأ إسلامي حاضر)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 218].

عنوان خطبة اليوم:

(الهجرة حدث تاريخي مضى، ومبدأ إسلامي حاضر)

أيها الإخوة:

بمناسبة بدء العام الهجري الجديد سأجعل حديث اليوم عن الهجرة.

وحادثة الهجرة – التي أجمع المسلمون منذ زمن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه على جعلها مبدأ تاريخهم – معلومة لديكم، وفي هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام من الدروس والعبر

الكثير الكثير ، وأحب أن أخبركم هنا بهجرة سيدنا أبي سلمة وزوجه أم سلمة. لأنتقل بعدها للهجرة مبدأ إسلامياً.

تقول كتب السير: (وكان ممن هاجر سيدنا أبو سلمة بن عبد الأسد وكان خرج بزوجه أم سلمة، ومعهما ابنهما سلمة، فخرج يقود بهما بعيره، فلما رأته رجال من بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم- وهم عشيرة زوجه وابنة عمه أم سلمة- قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك قد غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه، علام نتركك تسير بها في البلاد؟ فنزعوا خطام البعير من يده، وانتزعوها منه، فغضب عند ذلك بنو عبد الأسد- رهط أبي سلمة- فقالوا:

والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، فتجاذبوا «سلمة» فيما بينهم حتى خُلعت يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وأما أم سلمة فقد حبسها بنو المغيرة عندهم، وفرّقوا بينها وبين زوجها وولدها، ومع كل هذا انطلق أبو سلمة إلى الله مهاجراً، ولم يلو على أهل، ولا ولد، ولا مال حتى وصل إلى قباء فأقام بها حتى وصلت إليه زوجه بعد عام.

أما أم سلمة فكانت تخرج كل غداة فتجلس في الأبطح، فما تزال تبكي حتى تمسي سنة أو قريباً منها، حتى مر بها رجل من بني عمها، فرأى ما بها، وحزنها على فراق زوجها، فرق لها ورحمها، وذهب لأهلها وقال لهم: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟! فقالوا لها: الحقي بزوجك إن شئت، وحينئذ ردّ بنو عبد الأسد إليها ابنها سلمة، تقول أم سلمة: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة). [السيرة النبوية لمحمد أبو شهبة]

وبإمكانكم بعد هذه الحادثة الواحدة من عشرات مثلها أن تتصوروا البذل الذي بذله النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام للتمسك بدينهم والحفاظ عليه ونشره.

وجدت القرآن الكريم يتحدث عن الهجرة في سبيل الله في أكثر من خمس عشرة آية، وقد تناولت الآيات الكريمات الهجرة من جانبين؛ أولهما: ثواب الهجرة في سبيل الله وأجرها، وثانيهما: أهمية الهجرة وضرورتها وكونها معيار الموالاة بين المؤمنين.

ففي الجانب الأول ثواب الهجرة وأجرها قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 41]

وقال سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: 195]

وفي الجانب الثاني أهمية الهجرة وكونها معيار الموالاة بين المؤمنين قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: 72]

وقد نزلت هذه الآيات في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام من مكة إلى المدينة ومن مكة إلى الحبشة، ولكن علماء التفسير وأصول الفقه يقولون: (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) فهذه الآيات وإن كانت نازلة بحوادث تاريخية مضت ورجالٍ أفذاذٍ قضوا، ولكنها عامة لكل المؤمنين في الماضي والحاضر والمستقبل.

بمعنى أنه ينبغي على كل مسلم أن يهجر الأرض التي لا يستطيعُ القيامَ بشعائرِ دينه فيها وهو قادرٌ على الهجرة منها إلى أرض وبلد يستطيع أن يقيم شعائر الله فيها، وأن يهجر الصحبة التي تعينه على المنكر وتمنعه من المعروف إلى صحبة تعينه على المعروف وتنهاه عن المنكر، وأن يهجر العمل الذي لا يرضي الله إلى العمل الذي فيه رضاه، وأن يدع الخُلُقَ الذي يبغضه الله إلى الخُلُقِ الذي يحبه الله، وأن يترك ما نهى الله عنه ليفعل ما أمر الله به.

أخرج البخاري بإسناده عن رسول الله ﷺ: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**». وفي رواية ابن ماجه: «**وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ**».

وأخرج الإمام أحمد في مسنده بإسناده: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيْنَ الْهِجْرَةُ؛ إِلَيْكَ حَيْثُمَا كُنْتَ، أَمْ إِلَى أَرْضٍ مَعْلُومَةٍ، أو لِقَوْمٍ خَاصَّةً، أَمْ إِذَا مُتَّ انْقَطَعَتْ؟ قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**أَيْنَ السَّائِلُ عَنْ الْهِجْرَةِ؟**» قَالَ: هَا أَنَا ذَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**إِذَا أَقَمْتَ الصَّلَاةَ، وَآتَيْتَ الزَّكَاةَ، فَأَنْتَ مُهَاجِرٌ، وَإِنْ مُتَّ بِالْحَضْرَمَةِ**» قَالَ: يَعْنِي أَرْضًا بِالْيَمَامَةِ.

وفي رواية: «**الْهِجْرَةُ أَنْ تَهْجُرَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، ثُمَّ أَنْتَ مُهَاجِرٌ، وَإِنْ مُتَّ بِالْحَضَرِ**».

فالهجرة أيها الإخوة وإن كانت حدثا تاريخياً مضى ولكنها مبدأ إسلامي حاضر.

أرسلت سيدة فاضلة يوماً تسأل تقول:

(وصلت إلى بلد أوربي – سمّته – من سنوات مع أولادي الثلاثة صبيين وبنت لنلحق بزوجي المقيم هنا، بدأت المشكلات بسبب تغير البيئة والمجتمع الرافض لتمسكنا بديننا الإسلامي، المشكلة أن ابنتي المراهقة تغيرت لدرجة لم أكن أتوقعها من كل النواحي، وكان ذلك بتشجيع من المدرسة وأصدقائها، سافرت قبل أشهر إلى دبي لأرى أمي وأبي وتركت الأولاد مع والدهم، وعندما عدت تفاجئت بأن ابنتي تريد الذهاب إلى نادي رياضي مختلط، رفضنا أنا وأبوها وتناقشنا بشكل حاد، وفي اليوم التالي ذهبت إلى المدرسة وأخبرت مدرستها أن أمي تمنعني من أقل حقوقي.! تدخلت البلدية فوراً، وأنذرونا بسحب الأبناء منا إن عدنا إلى مثل هذا التصرف ثانية، حاولت حل المشكلة، ومنذ فترة بدأت ابنتي تفكر في العيش وحدها بحجة أنها أصبحت كبيرة وتريد أن تستقل مثل البنات الأوربيات وتتحمل المسؤولية، المشكلة القانون معها ومن الممكن أن تذهب إلى البلدية مرة أخرى، ونتعرض لأخذ الأبناء منا. لقد كانت ابنتي في الشام مؤدبة وكانت تحفظ شيئاً من القرآن الكريم وحفظت الأربعين النووية، ومنذ شهرين اكتشفت أنها تتحدث مع شاب، أخبرتها أن هذا حرام ولا يجوز ولكن لا فائدة. فبماذا تنصحوني).

أيها الإخوة: لا أرى لهذه الأم المتألمة والأب المشفق حلًّا إلا بالهجرة من بلد لا يأمن فيه المرء على دين نفسه وولده إلى بلد يأمن فيه عليهما، فالهجرة حدث تاريخي مضى ومبدأ إسلامي حاضر ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: 100]

قال المفسرون: (يجد في الأرض مكاناً ومتحولاً ينعم فيه بما يكون سبباً في قوته وذلة أعدائه، مع السعة في رزقه وعيشه)

قال القرطبي المفسر: (قال سعيد بن جبير: إذا عمل بالمعاصي في أرض فاخرج منها، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام»**).

أذكر يومها أنني أجبت هذه الأم الكريمة جواباً مختصرا مباشراً أقول فيه: عودوا بها إلى الشام أو إلى أي بلد تأمنون فيه على دينها بأسرع وقت.

سألني شاب يوماً قال: إنه يعمل في مكتب لمتعهد بناء، وكله المتعهد الآن بجمع الفواتير وتحريرها وأرشفتها لتسليمها للزبائن عند المحاسبة.

طلب إليه مؤخرا أن يزيد في المساحات ويغير في كميات المواد زيادة على الأعمال الحقيقية، وقد نصح العامل المتعهد ألا يفعل حتى لا يؤاخذه الله فلم يستجب وهو مصر على العامل أن يحرر له فواتير بكميات مكذوبة.

ويسأل الشاب ماذا يفعل، وهل عليه من إثم إن فعل؟

لا أجد جواباً لهذا الشاب إن أصر المتعهد على الغش والكذب والتزوير إلا الهجرة، أن يهجر ما نهى الله عنه، أن يترك هذا العمل الحرام ليبحث عن غيره من الحلال، أن يدع المعاونة على الإثم والعدوان إلى التعاون على البر والتقوى، فالهجرة حدث تاريخي مضى ومبدأ إسلامي حاضر، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه. والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب ومنها الكسب الحرام والمال الحرام.

لا أجد جواباً لهذا الشاب وأمثاله إلا أن يكسب دينه ولو خسر شيئاً من دنياه، وأن يشتري رضا ربه بعرض من الدنيا قليل، يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله فيربح كما ربح سيدنا صهيب الرومي.

أخرج أبو نعيم في حلية الأولياء أن صهيباً الرومي خرج مهاجراً إلى المدينة المنوَّرة، فتبعه نفرٌ من قريش، فنزل فأخذ كنانته وقال: قد عَلِمتم يا معشر قريش أنِّي أرماكم رجلاً بسهم، وايم الله، لا تصلون إليَّ، حتَّى أرميكم بكلِّ سهمٍ في كنانتي، ثمَّ أضربكم بسيفي ما بقي في يدي منه، ثمَّ شأنكم بعد ذلك، وإن شئتُم، دللتُكُم على مالي بمكَّة، على أن تخلوا سبيلي! قالوا: نعم، وتعاهدوا على ذلك، فدلَّهم على ماله أجمع، ومضى مهاجراً نحو النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، مشترياً بماله سلامة دينه، فأنزل الله على رسوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة:207]، فلمّا رأى النبي صلى الله عليه وسلم صهيباً، قال: «رَبِحَ البَيْعُ أَبَا يَحْيَى»، وقرأ عليه القرآن.

أيها الإخوة:

هذا حديثي لكم عن الهجرة الحدث التاريخي الماضي والمبدأ الإسلامي الحاضر، واذكروا أن الإسلام أفعال وتروك، مأمورات ومنهيات، ما أحل الله وما حرم.

والهجرة هي ترك التروك إلى فعل الأفعال، والانتهاء عن المنهيات إلى التزام المأمورات وهجر ما حرم الله إلى ما أحل الله. فإن فعلت ذلك فأنت مهاجر.

أخرج الإمام أحمد في المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الْهِجْرَةُ أَنْ تَهْجُرَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَتُقِيمَ الصَّلاة، وَتُؤْتِيَ الزَّكاة، ثُمَّ أَنْتَ مُهَاجِرٌ، وَإِنْ مُتَّ بِالْحَضَرِ**».

والحمد لله رب العالمين